فلسفة الأدب

لمصطفى صادق الرافعي

اذا اعتبرت الخيالَ في الذكاء الانساني وأوليته دقة النظر وحسن التمييز لم تجده في الحقيقة الا تقليداً من النفس للالوهية بوسائل عاجزة منقطعة، قادرة على التصور والوهم بمقدار عجزها عن الايجاد والتحقيق

وهذه النفس البشرية الآتيةُ من المجهول في اول حياتها، والراجعةُ اليه آخر حياتها، والممتدة في طريقه مدة حياتها، لا يمكن أن يتقرر في خيالها أن الشيء الموجود قد انتهى بوجوده فليس من حدوده منفذ ولا عنها محيص، ولا ترضى طبيعتُها بما ينتهي فهي لا تتعاطى الموجودَ فيما بينها وبين خيالها على أنهُ قد فُرِغ منهُ فما يُبتدأ، وتمّ فما يزاد، وخلد فما يتحوّل، ولا تزال تضرب ظنها وتصرّف وهمها في كل ما تراه أو يتلجلجُ في خاطرها، فلا تبرح تتلمّح في كل وجود غيباً وتكشف من الغامض وتزيد في غموضه وتجري دأباً على مجاريها الخيالية التي توثّق صلتها بالمجهول. فمن ثمّ لا بد في امرها مع الموجود مما لا وجود له تتعلق به وتسكن اليه؛ وعلى ذلك لا بد في كل شيء مع المعاني التي له في الحق من المعاني التي له في الخيال، وههنا موضع الادب والبيان في طبيعة النفس الانسانية فكلاهما طبيعيّ فيها كما ترى

واذا قيل الأدب فاعلم أنهُ لابدّ معهُ من البيان لان النفس تخلق فتصوّر فتحسنُ الصورة، وانما يكونُ تمام التركيب في معرضه وجمال صورته ورقة لمحاته وفتنة اشارته، بل ينزل البيان من المعنى الذي يلبسهُ منزلةَ النضج من الثمرة الحلوة اذا هي كانت وحدها قبل النضج شيئاً مسمّى او متميّزاً فلن تكون بدونه شيئاً تامّاً ولا صحيحاً، وما بُدّ من أن تستوفي كمال عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها

وهذه مسألة كيفما تناولتها فهي هي حتى تعرضها على هذا الوجه الذي رأيت في الثمرة ونضجها فان البيان صناعةُ الجمال في شيء جمالُه هو من فائدته وفائدته من جماله، فاذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره وعاد باباً من الاستعمال بعد ان كان باباً من التأثير وصار الفرق بين حالتيه كالفرق بين الفاكهة اذ هي باب من النبات وبين الفاكهة اذ هي باب من الخمر، ولهذا كان الاصل في الادب البيان والاسلوب في جميع لغات الفكر الانساني لانهُ كذلك في طبيعة النفس الانسانية

فالغرض الاول للادب المُبين ان يخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها الى المجهول والى مجاز الحقيقة، وأن يلقي الأسرار في الامور المكشوفة بما يتخيل فيها، ويردّ

القليل من الحياة كثيراً وافياً بما يضاعف من معانيه ، ويترك الماضي منها ذات قوة بما يخلد من وصفه ، ويجعل المؤلم منها لذة احتفياً بما يبث فيه من العاطفة ، والمملول ممتعاً حلواً بما يكشف فيه من الجمال والحكمة . ومدار ذلك كله على تشهّي النفس لذة المجهول التي هي في نفسها لذة مجهولة ايضاً : فان هذه النفس طُلَعة متقلبة لا تبتغي مجهولاً صرفاً ولا معلوماً صرفاً كأنها مدركة بفطرتها أن ليس في الكون صريح مطلق ولا خفي مطلق وانما تبتغي حالة ملائمة بين هذين يثور فيها قلق او يسكن منها قلق

وأشواق النفس هذه هي مادة الادب . فليس يكون أدباً الا اذا وضع المعنى في الحياة التي ليس لها معنى ؛ او كان متصلاً بسر هذه الحياة فيكشف عنه او يومئ اليه من قريب ، أو غيَّر لها هذه الحياة تغييراً يجيء طِباقاً لغرضها وأشواقها فانه كما يرحل الانسان من جوٍّ الى جوٍّ غيره ينتقل الادب من حياته التي لا تختلف الى حياة أخرى فيها شعورها ولذتها وإن لم يكن لها مكان ولا زمان ؛ حياة كنت فيها أشواق النفس لأن فيها اللذات والآلام بغير ضرورات ولا تكاليف . ولعمري ما جاءت الجنة والنار في الأديان عبثاً فان خالق النفس بما ركبه فيها من العجائب ، لا يحكم العقل أنه قد أتمّ خلقتها الا بخلق الجنة والنار معها إذ هما الصورتان الدائمتان المكافئتان لأشواقها وآلامها الخالدة إذ هي استقامت مسددة أو انعكست حائلة

وقد صح عندي أن النفس لا تتحقق من حريتها ولا تنطلق انطلاقتها الخالدة فتحس وحدة الشعور ووحدة الكمال الأسمى الا في ساعات وفترات تنسل فيها من زمنها وعيشها ونقائضها واضطرابها الى « منطقة حياد » خارجة وراء الزمان والمكان ، فاذا هبطتها النفس فكأنما انتقلت الى الجنة واستروحت الخلد . وهذه المنطقة السحرية لا تكون الا في أربعة : حبيبٌ فان معشوق أعطي قوة سحر النفس فهي تنسى به ، وصديق محبوب وفيٌّ أوتي قوة جذب النفس فهي تنسى عنده ، وقطعة أدبية آخذة فهي ساحرة كالحبيب أو جاذبة كالصديق ، ومنظر فني رائع فنيه من كل شيء شيء

وهذه كلها تُنسي المرء زمنه مدة تطول وتقصر ، وذلك فيها دليل على ان النفس الانسانية تُصيب منها أساليب روحية لا تنالها منبهة بالروح الأزلي في لحظات من الشعور كأنها ليست من هذه الدنيا وكأنها من الأزلية . ومن ثم نستطيع أن نقرر أن أساس الفن على الاطلاق هو ثورة الخالد في الانسان على الفاني فيه ، وأن تصوير هذه الثورة في أوهامها وحقائقها بتمثل اختلاجها في الشعور والتأثير هو معنى الأدب وأسلوبه

ثم أن الاتساق والخير والحق والجمال — وهي التي تجمل للحياة الانسانية اسرارها — أمور غير طبيعية في عالم يقوم على الاضطراب والأثرة والنزاع والشهوات . فمن ذلك يأتي الشاعر والأديب وذو الفن علاجاً من حكمة الحياة للحياة ؛ فيبدعون لتلك الصفات الانسانية الجميلة

مثلها الذي تكون طبيعية فيه وهو عالم اركانهُ الاتساق في المعاني التي يجري فيها ، والجمال في التعبير الذي يتأدى به ، والحق في الفكر الذي يقوم عليه والخير في الغرض الذي يُساق له . ويكون في الادب من النقص أو الكمال بحسب ما يجتمع له من هذه الاربعة ولا معيار أدق منها اذ هي تعتبره بالنظر والرأي . ففي عمل الأديب تخرج الحقيقة مضافاً اليها الفن ، ويجيء التعبير مزيداً فيه الجمال ، وتتمثل الطبيعة الجامدة خارجة من نفس حيّة ، ويظهر الكلام وفيه رقة حياة القلب وحرارتها وشعورها وانتظامها ودقتها الموسيقي ، وتلبس الشهوات الانسانية شكلها المهذب لتكون بسبب من تقرير المثل الأعلى الذي هو السر في ثورة الخالد من الانسان على الذاتي والذي هو الغاية الاخيرة من الأدب والفن معاً ؛ وبهذا يهبك الأدب تلك القوة الغامضة التي تتسع بك حتى تشعر بالدنيا وأحداثها مارّة من خلال نفسك وتحس الأشياء كأنها انتقلت الى ذاتك من ذواتها . وذلك سر الاديب العبقري فانهُ لا يرى الرأي بالاعتقاب والاجتهاد كما يراه الناس وانما هو يحسُّ به فلا يقع له رأيه بالفكر بل يلهمهُ إلهاماً . وليس يؤاتيه الإلهام الاّ من كون الاشياء تمرّ فيه بمعانيها وتمرده كما تمر السفن بالنهر فيحس أثرها فيلهمه ما يلهم . وبحسبُ الناس نافذاً يفكره من خلال الكون على حين ان حقائق الكون هي النافذة من خلاله

ولو أردت ان تعرف الاديب من هو لما وجدت أجمع ولا أدق في معناه من ان تسميه الانسان الكوني وغيره هو الانسان فقط . ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثره بجمال الاشياء ومعانيها ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وافراحها إذ كانت فيه مع خاصية الانسان خاصية الكون الشامل . فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع انه منها ، وتدل السماء بما في صناعته من الوحي والاسرار انه كذلك منها ، وتبرهن الحياة بفلسفته وآرائه انه هو منها ، وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذي لا حد له والاتساع الذي كل آخر فيه لشيء أولٌ فيه لشيء

وهو انسان يدله الجمال على نفسه ليدلّ غيره عليه ، وبذلك زيد على معناه معنى وأضيف اليه في إحساسه قوة انشاء الاحساس في غيره ، فأساس عمله دائماً ان يزيد على كل فكرة صورة لها ويزيد على كل صورة فكرة فيها ، فهو يبدع المعاني للاشكال الجامدة فيوجد الحياة فيها ويبدع الاشكال للمعاني المجردة فيوجدها هي في الحياة ، فكأنهُ خلق ليتلق الحقيقة ويعطيها الناس ويزيدهم فيها الشعورَ بجمالها الفني . والادباء والعلماء تنمو معاني الحياة كأنما اوجدتهم الحكمة لتنقل بهم الدنيا من حالة الى حالة ، وكأن هذا الكون العظيم يمرّ في أدمغتهم ليحقق نفسه

ومشاركة العلماء للادباء توجب ان يتميز الاديب بالاسلوب البياني اذ هو كالطابع على العمل الفني وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الانسان الموهوب الذي جاءت من طريقه (١) ثم

(١) تبسط الكلام عن الاسلوب وفلسفته في كتابنا الجديد (اسرار الاعجاز) الذي تم به كتاب اعجاز القرآن

لان الاسلوب هو تخصيص لنوع من الذوق وطريقة من الادراك كأن الجمال يقول بالاسلوب : ان هذا هو عمل فلان

وفصلُ ما بين العالم والاديب ان العالم فكرة ولكن الاديب فكرةٌ وأسلوبُها . فالعلماء ثم أعمال متصلة متشابهة يشار اليهم جملة واحدة على حين يقال في كل اديب عبقريّ هذا هو هذا وحده. وعلم الاديب هو النفس الانسانية بأسرارها المتجهة الى الطبيعة ، والطبيعة بأسرارها المتجهة الى النفس . ولذلك فوضعه من الحياة موضع فكرة حدودها من كل نواحيها الاسرار

واذا رأى الناس منه الانسانية تركيباً تامًّا قائمًا بحقائقه واوصافه ، فالاديب العبقري لا يراها الا أجزاءها كأنما هو يشهد خلقها وتركيبها وكأنما أسرُّها في (معمله) أو كأنَّ الله سبحانه دعاه ليرى فيها رأيه... وبذلك يجيء النابغُ من أدب العباقرة وبعضه كالمقترحات لتجميل الدنيا وتهذيب الانسانية ، وبعضه كالمراجعة للنفس والطبيعة ، وبعضه كالموافقة واقرار الحكمة ، وأساسه على كل هذه الاحوال النقد ثم النقد ولا شيء غير النقد، كأن القوة الازلية تقول لهذا الملهم : انت كلمتي فقل كلمتك

***

وترى الجمال حيث اصبته شيئاً واحداً لايكبر ولا يصغر ولكن الحس به يكبر في أناس ويصغر في أناس ، ومهنا يتأله الادب فهو خالق الجمال في الذهن والممكّن للاسباب المعينة على ادراكه وتبيّن صفاته ومعانيه ، وهو الذي يقدّر لهذا العالم قيمته الانسانية باضافة الصور الفكرية الجميلة اليه وعاولته إظهارَ النظام المجهول في متناقضات النفس البشرية والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحط المجتمع من غشاوة الفطرة وصولة الغريزة وغرارة الطبع الحيواني

واذا كان الامر في الادب على ذلك فباضطرار أن تهذب فيه الحياة وتتأدب ، وأن يكون تسلطهُ على بواعث النفس دُرْبة لاصلاحها وإقامتها لا لإفسادها والانحراف بها الى الزيغ والضلالة ، وباضطرار أن يكون الاديب مكلّفاً تصحيح النفس الانسانية ونفيَ التزوير عنها وإخلاصَها مما يلتبس بها على تتابع الضرورات ، ثم تصحيح الفكرة الانسانية في الوجود ونفي الوثنية عن هذه الفكرة والسموّ بها الى فوق ثم الى فوق ودائماً الى فوق

وانما يكلّف الاديب ذلك لانهُ مستبصرٌ من خصائصه التميز وتقدُّمُ النظر وتسقُّطُ الإلهام، ولان الاصل في عمله الفنيّ أن لا يبحث في الشيء نفسه ولكن في البديع منهُ ، وأن لاينظر الى وجوده بل الى سره ، ولا يعنى بتركيبه بل بالجمال في تركيبه ، ولان مادة عمله أحوالُ الناس واخلاقهم وألوانُ معايشهم واحلامُهم ومذاهب أخيلتهم وافكارهم في معنى الفن وتفاوتُ إحساسهم به وأسبابُ مغاويهم ومراشدهم، يسدّدُ على كل ذلك رأيه ويجيل فيه نظره ويخلطه في نفسه وينفذه من حواسه كأنما له في السرائر القبضُ والبسط وكأنهُ ولي الحكم على الجزء

الخلق في الانسان يقوم على سياسته وتسييره ويهديه الى المثل الاعلى . وهل يخلق العبقري إلا كالبرهان من الله لعباده على ان فيهم من يقدر على الذي هو أكمل والذي هو ابدع ، حتى لا ييأس العقل الانساني ولا يتخاذل فيستمر دائباً في طلب الكمال والابداع اللذين لا نهاية لهما؟

فالاديب يشرف على هذه الدنيا من بصيرته فاذا وقائع الحياة في حذو واحد من النزاع والتناقض واذا هي دائبة في محق الشخصية الانسانية تاركة كل حي من الناس كأنه شخص قائم من عمله وحوادثه وأسباب عيشه ؛ فاذا تلجلج ذلك في نفسه انبعثت هذه النفس العالية الى أن تحفظ للدنيا حقائق الضمير والانسانية والاعجاز والفضيلة وقامت حارسة على ما ضيع الناس وسخرت في ذلك تسخيراً لا تملك معه أن تأبى منه ولا يستوي لها أن تخفض فيه ، ونقلت الانسانية كلها ووضعت على مجاز طريقها أين توجهت فتأكد الامر فيها ووصل بها وعلمت أنها من خالصة الله وأن رسالتها للعالم هي تقرير الحب للمتعادين ، وبسط الرحمة للمتنازعين وأن تجمع الكل على الجمال وهو لا يختلف في لذته وتصل بينهم بالحقيقة وهي لا تتفرق في موعظتها وتشرهم الحكمة وهي لاتتنازع في مناحيها . فالادب من هذه الناحية يشبه الدين كلاهما يعين الانسانية على الاستمرار في عملها وكلاهما قريب من قريب ، غير ان الدين يعرض للحالات النفسية ليأمر وينهى والادب يعرض لها ليجمع ويتأمل ، والدين يوجه الانسان الى ربه والادب يوجهه الى نفسه ، وذلك وحي الله الى الملائكة الى نبي مختار وهذا وحي الله الى البصيرة الى انسان مختار

فان لم يكن للاديب مثل أعلى يجهد في تحقيقه ويعمل في سبيله فهو اديب حالة من الحالات لا أديب عصر ولا اديب جيل . وبذلك وحده كان اهل المثل الاعلى في كل عصر هم الارقام الانسانية التي يلقيها العصر في آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته

ولا يخدعنك عن هذا ان ترى بعض العبقريين لا يؤتى في ادبه او اكثره الا الى الرذائل يتغلغل فيها ويتملأ بها ويكون منها على ما ليس عليه احد الا السفلة والحشوة من طغام الناس ورعاعهم ، فان هذا واضرابه مسخرون لخدمة الفضيلة وتحقيقها من جهة ما فيها من النهي ليكونوا مثلاً وسلفاً وعبرة ، وكثيراً ما تكون الموعظة برذائلهم اقوى وأشد تأثيراً مما هي في الفضائل . بل هم عندي كبعض الاحوال النفسية الدقيقة التي يأمر فيها النهي اقوى مما يأمر الامر على نحو ما يكون من قراءتك موعظة الفضيلة الادبية التي تأمرك ان تكون عفيفاً طاهراً ثم ما يكون من رؤيتك الفاجر المتبلى المشوه المتحطم الذي ينهاك بصورته ان تكون مثله . ولهذه الحقيقة القوية في اثرها — حقيقة الامر بالنهي — يعمد النوابغ في بعض ادبهم الى صرف الطبيعة النفسية عن وجهها بعكس نتيجة الموقف الذي يصورونه او الاحالة في الحادثة التي يصفونها فينتهي الراهب التقي في القصة ملحداً فاجراً وترتد المرأة البغي قديسة ويرجع الابن البر قاتلاً مجنوناً جنون الدم ، الى كثير مما يجري في هذا النسق كما

زاد لاناتول فرانس وشكسبير وغيرهما . وما كان ذلك عن غفلة منهم ولا شر ولكنهُ اسلوب من الفن يقابله اسلوب من الخلق ليبدع اسلوباً من التأثير . وكل ذلك شاذ معدود ينبغي ان ينحصر ولا يتعدى لانهُ وصف لاحوال دقيقة طارئة على النفس لا تعبير عن حقائق ثابتة مستقرة فيها

والشرط في العبقري الذي تلك صفته وذلك ادبه ان يعلو بالرذيلة ... في اسلوبه ومعانيه آخذاً بغاية الصنعة متناهياً في حسن العبارة حتى يصبح وكأن الرذائل هي اختارت منهُ مفسّرها العبقري الشاذ الذي يكون في سمو فنه البياني هو وحده الطرفَ المقابل لسمو العبارة عن الفضيلة ؛ فيصنع الالهام في هذا وفي هذا صنعه الفنيّ بطريقة بديعة التأثير املها في اديب الفضيلة ما يريده ويجاهد فيه ؛ وفي اديب الرذيلة ما يقرره ويندم اليه ، كأنهما انساناً صار ملَكاً يكتب وانساناً عاد حيواناً يكتب ....

واذا انت ميَّزت بين رذيلة الاديب العبقري في فنه ورذيلة الاديب الفسل الذي يتشبه به في التأليف والرأي والمتابعة والمذهب ، رأيت الواحدة من الاخرى كبكاء الرجل الشاعر من بكاء الرجل الغليظ الجلف : هذا دموعه الله وذاك دموعه الله وشعره . وفي كتابة هذه الطبقة من العبقريين خاصة يتحقق لك ان الاسلوب هو اساس الفن الادبي وان اللذة به هي علامة الحياة فيه اذ لا ترى غير قطعة ادبية فنية شاهدُها من نفسها على انها باسلوبها ليست في الحقيقة الا نكتة نفسية لاهتياج البواعث في نفوس قرائها ، وانها على ذلك هي ايضاً مسئلة من مسائل الانسانية مطروحة للنظر والحل بما فيها من جمال الفن ودقائق التحليل

* * *

واللذة بالادب غير التلهي به واتخاذه للعبث والبطالة فيجيء موضوعاً على ذلك فيخرج الى ان يكون ملهاةً ومسخفاً ومضيعةً . فان اللذة به آتية من جمال اسلوبه وبلاغة معانيه وتناوله الكون والحياة بالاساليب الشعرية التي في النفس وهي الاصل في جمال الاسلوب ، ثم هو بعد هذه اللذة منفعة كله كسائر ما ركب في طبيعة الحي اذ يحس الذوقُ لذة الطعام مثلاً على ان يكون من فعلها الطبيعي استمرار التغذية لبناء الجسم وحفظ القوة وزيادتها . اما التلهي فيجيء من سخف الادب وفراغ معانيه ومؤاتاته الشهوات الخسيسة والتماسه الجوانب الضيقة من الحياة وذلك حين لا يكون أدبَ الشعب ولا الانسانية بل أدب فئة بعينها واحوالها . فان أديب صناعته أو اديب جماعته غير أديب قومه وأديب عصره . احدهما الى حد محدود من الحياة والآخر عمل جامع مستمر متقن لان عمله الادبي هو وجوده وكل شيء في قومه لا يبرح يقول له اكتب

ومن الاصول الاجتماعية التي لا تتخلف انه اذا كانت الدولة للشعب كان الادب ادب الشعب

في حياته وافكاره ومطامحه والوان عيشه ؛ وزخر الادب بذلك وتنوع وافتن وبني على الحياة الاجتماعية . فان كانت الدولة لغير الشعب كان الادب أدب الحاكمين وبني على النفاق والمداهنة وللمبالغات الصناعية والكذب والتلبيس ؛ ونضب الادب من ذلك وقلّ وتكرر من صورة واحدة . وفي الاولى يتسع الاديب من الاحساس بالحياة وفنونها وأسرارها في كل من حوله الى الاحساس بالكون وخياله واسراره في كل ما حوله . اما الثانية فلا يحسُّ فيها الا أحوال نفسه وخليطه فيصبح ادبه اشبه بمسافة محدودة من الكون الواسع لا يزال يذهب فيها ويجيء حتى يملّ بنفسه ذهابه ومجيئه

والعجب الذي لم يتنبه له احد الى اليوم من كل من درسوا الادب العربي قديماً وحديثاً انك لا تجد تقرير المعنى الفلسفي الاجتماعي للادب في اسمى معانيه الا في اللغة العربية وحدها ولم يغفل عنه مع ذلك الا اهل هذه اللغة وحدهم

فاذا أردت الادب الذي يقرر الاسلوب شرطاً فيه ويأتي بقوة اللغة صورةً لقوة الطباع وبعظمة الاداء صورة لعظمة الاخلاق ، وبرقة البيان صورة لرقة النفس ، وبدقة التركيب المتناهية في العمق صورة لدقة النظرة الى الحياة ، ويريك ان الكلام أمة من الالفاظ عاملة في حياة امة من الناس ضابطة لها المقاييس التاريخية محكمة لها الاوضاع الانسانية مشترطة فيها المثلَ الاعلى حاملة لها النور الالهي على الارض

واذا اردت الادب الذي ينشيء الامة انشاءً سامياً ويدفعها الى المعالي دفعاً ويردها عن سفاسف الحياة ويوجهها بدقة الابرة المغناطيسية الى الآفاق الواسعة من الحياة ويسددها في اغراضها التاريخية العالية تسديد القنبلة خرجت من مدفعها الضخم الحرر المحكم ؟ ويملأ سرائرها يقيناً ونفوسها حزماً وابصارها نظراً وعقولها حكمة وينفذ بها من مظاهر الكون الى اسرار الالوهية

اذا أردت الادب على كل هذه الوجوه من الاعتبار وجدت القرآن الحكيم قد وضع الاصل الحي في ذلك كله . وأعجب ما فيه انه جعل هذا الاصل مقدّساً . وفرض هذا التقديس عقيدة واعتبر هذه العقيدة ثابتة لن تتغير ؛ ومع ذلك كله لم يتنبه له الادباء ولم يحذوا بالادب حذوه وحسبوه ديناً فقط وذهبوا بادبهم الى العبث والمجون والنفاق كأنه ليس منهم الا بقايا تاريخ محتضر بالعلل القاتلة ذاهب الى الفناء المحتم

والقرآن بأسلوبه ومعانيه واغراضه لا يستخرج منه للادب الاَّ تعريف واحد : ان الادب هو السموُّ بضمير الامة

ولا يستخرج منه للاديب الا تعريف واحد : ان الاديب هو من كان لامته وللغتها في مواهب قلمه لقبٌ من القاب التاريخ